المحاضرة السابعة

السنة الأولى فلسفة الشرق الدكتورة بشرى عباس المحاضرة السابعة

أرض الرافدين الحياة الفاضلة

(٧)

الفضيلة الكبرى والطاعة

الشيء الطبيعي أن تبدو الطاعة في حضارة ترى الكون كله على صورة دولة كفضيلة كبرى، لأن الدولة مبنية على الطاعة والخضوع للسلطة.

فلا عجب أن نرى أن الحياة الفاضلة في أرض الرافدين كانت الحياة الطبيعية، حيث يقف الفرد في المركز من دوائر متلاحقة من السلطة تحدد حرية عمله ونشاطه وكانت أقرب وأصغر هذه الدوائر تتألف من السلطات التي ضمن أسرته أبيه وأمه، وأخيه الأكبر وأخته الكبرى، وبجوزتنا نشيد يصف عصراً ذهبياً قادماً يتميز بأنه عصر الطاعة:

يوم يحجب المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الابن أباه

يوم يبين الاحترام جلياً في البلاد ويحل صغير القدر الكبير

يوم يحترم الأخ الصغير أخاه الكبير

ويرشد الولد الأكبر الولد الأصغر ويمتسك الأخير بقراراته

ويوصي العراقي القديم دائماً بأن اسمع كلمة أمك كما تسمع كلمة إلهك. احترم أخاك الأكبر، اسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة أبيك، ولا تغضب قلب أختك الكبرى.

وما طاعة المر للأفراد الذين يكبرونه سناً في العائلة إلا البداية، فوراء العائلة دوائر أخرى، وسلطات أخرى الدولة والمجتمع فثمة المراقب حيث يعمل الفرد وثمة المشرف على الأعمال الزراعية التي يشترك فيها المرء، وثمة الملك، وكلهم يطالب بالطاعة المطلقة والعراقي القديم ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الأستياء والشفقة، ونظرة الخوف أيضاً، الجنود بلا ملك غنم بغير راعيها.

وإذا كان الجمهور بلا قائد ينظمه ويوجهه ضائعاً حائراً كقطيع من الغنم دون راع فإنه أيضاً شيء خطير، قد يكون مدمراً كالمياه التي تحطم سدودها وتغرق الحقول والبساتين إذا لم يتداركها مفتش الري بصيانة السدود، والعمال بلا مراقب كالمياه بلا مفتش ري.

ثم أن الجمهور الذي يعوزه القائد والتنظيم لا يجدي ولا ينتج كحقل لا ينمو الزرع فيه إذا لم يحرث، الفلاحون بلا مشرف كحقل بلا حارث.

ولذا يستحيل وجود عالم منظم إذا لم تفرض عليه سلطة عليا إدارتها، والفرد هنا بأن السلطة دائماً على حق أوامر القصر كأوامر /آنو/ لا تستبدل، كلمة الملك حق ونطقه كنطق الإله لا يغيره شيء.

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

وفضلاً عن دوائر السلطة البشرية من عائلة ومجتمع ودولة للحد من حرية الفرد، هناك دوائر السلطة الإلهية التي لا يجوز له أن يتخطاها.

وهنا نجد روابط ولائية بعضها وثيق وبعضها واه، فروابط الفرد بكبار الآلهة في الألف الثالث ق.م روابط ثانية لأنه يخدمهم لا بصفته فرداً معيناً بل بصفته عضواً في مجتمعه إنه يعمل كأحد المتفرجين، ولكن نادراً ما يتمتع رقيق الأرض بعلاقة حميمة بسيده، وهكذا فإن الفرد في هذه البلاد لا ينظر إلى الآلهة الكبار إلا كقوة نائية ليس له أن يتفرج إليها أو يتضرع إليها إلا في الشديد من الأزمات، ولا يفعل ذلك إلا عن طريق الوسطاء، أما العلاقات الشخصية الوثيقة علاقات الفرد بالسلطات التي في عائلته من أب وأم وأخ وأخت أكبر منه فلا توجد إلا بينه وبين إله واحد فقط، إله الشخصي.

ومن عادة الإله الشخصي أن يكون إلهاً صغيراً يعني بعائلة ذلك الشخص عناية خاصة فهو أقرب ما يكون إلى تشخيص لحظ الفرد ونجاحه في الحياة في اعتقاد ما بين النهرين بالإله الشخصي إنه القوة الكامنة وراء فلاح الإنسان ظاهر.

ليس بمقدور الإنسان بلا إله (شخصي)

أن يكسب حبزه

ولا بمقدور الغبي أن يحرك ذراعه ببطولة في المعركة

أي أنك لن تحظى بالنجاح إلا إذا حططت للمستقبل وعندئذ يكون إلهك معك.

وبما أن الإله الشخصي هو القوة المسببة لنجاح أعمال الإنسان فمن الطبيعي أن يتحمل أيضاً المسؤولية الأدبية في مثل هذه الأفعال.

جزاء الطاعة

لما كانت نعمة الطاعة هي جوهر الحياة الفاضلة فيما بين النهرين ما الذي كان الإنسان يرجوه من خير يتمسكه بحياة الفضيلة.

إن الجواب إلى ذلك نعطيه بصيغة تتفق ونظرة البابلي القديم إلى الدنيا وتتفق ومنزله الإنسان في الدولة الكونية فنحن نذكر قد خلق ليكون عبداً للإلهة، إنه خادمهم وللخادم المجتهد المطيع أن يلجأ إلى سيده في طلب الحماية كما أن للخادم المجتهد المطيع أن يتوقع الترقية والمكافأة من سيده، اما الخادم الكسول الا مطيع فلا أمل له في شيء من ذلكن وطريق الطاعة والخدمة والعبادة هي طريق التمتع بالحماية وهي كذلك الطريق إلى النجاح في الدنيا وأسمى القيم في الحياة البابلية الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق بين الجماعة والابناء الكثر والثراء.

عندما ننظر إلى الكون الباطني من ناحية ما يوسع الفرد أن يفهم لنفسه بضعي الإله شخصية محورية فهو الصلة بين الفرد وبين الكون وقوامه وذلك لإن الإله الشخصي ليس بالنائي الرهيب ككبار الآلهة بل هو دان أليف كثير الاهتمام أن يحاطه ويلتمس إليه ويستثير عطفه وباختصار للمرء أن يستخدم معه كل الوسائل التي يلجأ إليها الطفل مع والديه ويمكن ظرب المثل على طبيعة العلاقة برسالة وجهها أحد الأناس إلى ربه لإن سكان أرض الرافدين كثيراً ما كانو يخطون الرسائل على الهتهم نعلم أنهم كانوا يظنون أنهم قد لا يجدون الإله في البيت عندما يذهبون إليه ولكنه لا ريب يقرأ الرسائل التي تصل غليه أو قد يكون

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

كاتب الرسالة مريضاً فمنعه مرضه عن المجيء فيلجأ إلى الكتابة، والرسالة التي سوف نعرضها يبدو أن كاتبها يرى المجيء بنفسه لأنه (زعلان) فهو متألم لظنه أن ربه قد أهمله:

خاطب الرب أباك هذا ما يقوله خادمك

لم قد أهملتني

من ذا الذي يأتيك بواحد بجل محلي

أكتب على الإله مردوك فأنت أثير لديه

لعله يكسر لي قيودي

واذكر كذلك عائلتي كباراً وصغاراً

ارحمني من أجلهم وأجل عونك يبلغني

القيود التي تذكرها الرسالة هي المرض، قرب المرء الشخصي يستطيع أن يغنيه في معا ويتيح له البروز والمكانة ولكنه لا يقوى على تخليصه من براثن مارد لا يروعه وازع قانون فإذا وقع المرء الذي في وصايته في قبضة مارد شرير وجب عليه أن يسد مائه من نفوس لتحريك آلة العدالة الإلهية لذا تقول الرسالة (اكتب إلى الإله مردوق فأنت أثير لديه).

كان النفع الأكبر من الإله الشخصي هو استحصاله العدالة الإلهية بنفوذه غير أنه كان يطلب إليه أيضاً أن يستغل هذا النفوذ لرفاه وتقدم الفرد الذي في وصايته بصورة عامة وأن يذكر الفرد بخير كلما استطاع وهكذا نجد أن الإنسان قد يخطي عن طريق الطاعة والخدمة حظى إله الشخصي وهذا الإله قد يستحر نفوذه مع من يعلوه من الآلهة لمنفعة ذلك الإنسان.

الثورة على الموت

ملحمة كلكامش

الثورة على الموت تلقاها في صورة سخط مكتوم وإحساس رفيع بالظلم هو إحساس أكثر منه تفكير ولكن مما لا يرقى إليه الشك هو أن هذا الإحساس منشأه الفكرة الجديدة عن حقوق الإنسا والمطالبة بالعدالة في الكون فالموت شر وهو في قوته شر من كل عقاب بل هو العقاب الأكبر وما الداعي إلى موت الإنسان إذا لم يكن قد اقترف إثماً، لم يكن لمثل هذا السؤال في العالم الاحتياطي القديم أي خطر لأن الخير والشر يلبيهما أمر اعتباطي نجد معالجة لهذا السؤال في ملحمة غلغامش التي يعتقد أنها ألفت في أوائل الألف الثاني وهي ملحمة مبنية على أقاصيص أقدم منها غير أن هذه الأقاصيص أعيد سبكها في قالب جديد وجمعت حول موضوع جديد وهو موضوع الموت.

غلغامش شاب شديد العزيمة وهو حاكم مدينة اوروك في بلاد سومر إنه يسوق شعبه سوقاً عانياً فيلتمس الشعب إلى الآلهة بأن تخلق منافساً له يشغله فيجد الشعب الراحة وتستجيب الآلهة وتخلق انكيدو ويصبح هذا رفيقاً غلغامش وصديقه ويخرج الاثنان في طلب المغامرات والأخطار ويشتاق الطريق على غابة الأرز في الغرب حيث يصرعان (هواوا) وهو وحش رهيب

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

يحرس الغابة لإنليل وعند عودتها تقع الآلهة (إنانا) في حب غلغامش وعندما يعرض عنها ترسل (ثور السماء) المخيف لقتله وهنا أيضاً يخرج البطلان ظافرين إذ يشتركان مع الثور في معركة ضارية فيقضيان عليه فيبدو أن لاحد لقوتهما وبطشهما، ويخر أرهب خصوم صرعى أمام سلاحهما فلا يتورعان عن معاملة الآلهة الجبارة بكثير من الإباء والعجرفة، وبعد ذلك يقرر أمليل أن أنكيدو يجبان يموت عقاباً له على صرعه /حواوا/ وإذا انكيدو الذي لا يقهر يمرض ويموت.

لم يعد الموت حتى تلك الآونة شيئاً لغلغامش، فهو قد قبل مقاييس البطولة المعهودة ومقاييس حضارة معهودة والموت لا بد منه، ومن العبث التخوف منه فإذا كان على المرء أن يموت فليمت مبتة المجد والفخار في مقاتلة خصم جدير به لكي يعيش شهرته من بعده وقبل بدأ المعركة مع هواوا تقاعس أنكيدو وبرهه وقد خذلته شجاعته فراح غلغامش يؤنبه بقوله:

من الذي يا رفيقي أدرك من السمو ما يمكنه من

الصعود إلى السماء والإقامة مع شماش على الأبد

مجرد إنسان أيام معدودات

ومهما فعل إن هو إلا هبة ريح

أراك خشية الموت

أين بأسك وشجاعتك

دعني أقود وإذا سقطت مضرجاً أكون قد بنيت أساساً لشهرتي

فيقولون عني قتل غلغامش وهو يصارع هواوا الرهيب

ويردف قائلاً أنه إذا سقط قتيلاً سيروى أنكيدو لابن غلغامش عن أبيه فليس في الموت رهبة أو هول إنه جزء من اللعبة والشهرة تجعل اسم المرء صاعداً في الأجيال القادمة.

غير أن غلغامش لم يكن يعرف الموت عندئذ إلا كأمر مجرد

يارفيقي يا أخي الأصغر يا من كان معي في التلال

يصطاد حمار الوحش والفهد في السهول

من كان يرافقني يفعل كل شيء

وأمسك بثور السماء وأرداه قتيلاً

لم يرفع غلغامش عينيه عنه

حس قلبه فلم ينبض

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

ثم كما صديقه فكأنه عروس الزفاف

خسارته الفادحة أفجع من أن يتحلمها فيوفض أن يعترف بها كأمر واقع

ذلك الذي شاطر في كل خطر

حتف الإنسان المحتوم قد أحاط به

ورفض الإذن بدفنه

سبعة أيام وسبعة ليال

إلى ان سقطت في أنفه دودة

لا عزاء لي منذ أن راح

وتظل خواطر الموت تلاحق غلغامش لم يبق له إلا خاطر واحد وهدف واحد وهو العثور على الحياة الدائمة فيخرج للبحث عنها وفي نهاية العالم فيما وراء حياة الموت يقيم سلف له حظي بالحياة الأبدية سوف يذهب إليه غلغامش ليعرف سره فيرحل لوحده في الطريق لاطويلة السائية إلى الجبال التي تقرب الشمس فيها ويطرق الممر المظلم الذي تقطعه الشمس في الليل ويكاد ييأس من رؤية النور مرة ثانية إلى أن يخرج في نهاية شاطئ بحر فسيح وكل من يلقاه في ترحاله يسائله غلغامش عن الطريق إلى وعن الحياة الأبدية والكل يجيبه بأن بحثه لا أمل يرجى منه

أوتانابشتيم وبسأله

غلغامش أين رحلت تجول

إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها أبداً

لأن الآلهة عندما خلقت الإنسان جعلت

الموت نصيب وأمسكت بأيديها عنه الحياة

ولكن غلغامش لا يستطيع أن ينصرف عن بحثه ويستسلم لما هو من نصيب الناس كلهم إنه ليحترق شوقاً إلى الحياة الدائمة، وعلى شاطئ البحر يرى ملاحه (أوتنا بشيتم) إلا أن أوتنا بشيتم عاجز عن معونته فقد فاز في الحياة الأبدية في ظروف فذة لن تتكرر مطلقاً ففي سالف الأيام عندما عزمت الآلهة سحق البشر وأنزلت الطوفان بهم بزعامة أنليل لم ينجو إلا أوتنا بشيتم وزوجته فقد أنذر مقدماً وبنى فلكاً كبيراً أنقذ به نفسه وزوجته وزوجاً من كل شيء حي، وقد ندم أنليل فيما بعد على إرساله الطوفان معتوراً لذلك طيباً منه، ووهب أوتنا بشيتم الحياة الأبدية جزاءً له على إنقاذه الحياة في الأرض.

ولكن يوسع غلغامش أن يصارع الموت فيأمره أوتنا بشيتم بمنازلة النوم في نومه سخرية ليست إلا شكلاً آخر للموت ويكاد يغلب غلغامش على أمره في الحال ويشرف على الهلاك عندما توقظه زوجة اوتنا بشيتم شفقة منها عليه، لقد أصغق مسعاه

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

ويهيئ غلغامش نفسه للعودة إلى اوروك يائساً كئيباً وفي تلك اللحظة تحث زوجة اوتنا بشيتم زوجها على إعطائه هدية فيحره اوتنا بشيتم عن نبته تنمو في قاع البحر تعيد إلى من يأكل منها شبابه فينعش غلغامش من بعد اكتئابه ويصحبه اوتنا بشيتم إلى المكان المعين حيث يقوص غلغامش ثم يصعد وفي يديه النبتة العزيزة فيجران في اتجاه اوروك ويبلغان ساحل الخليج العربي ثم يرحلان في البر مشياً على الأقدام ولكن اليوم كانوا والسفر مقن وحينما يرى غلغامش بركه كفرية مياهها الباردة يخلع ثيابه ويلقي نفسه في البركة أما النبتة فيتركها على الضفة وفيما هي ملقاة هناك تشم رائحتها إحدى الأفاعي فتخرج من جحرها وتختطفها.

ولذلك لأن الحيات أكلت من تلك النبتة فإنها لا تموت فإذا ما طعنت في السن نضت عنها أجسامها الشائخة وولدت فتية من جديد اما الإنسان فتستحيل عليه هذه العودة إلى الشباب لأن نبتة غلغامش ضاعت عليه

وعندما فقد غلغامش أرضاً وبكى

وحر من الدموع على خديه

عن أحجرت عضلاتي يا اورشنابي

لمن سكبت الدم في قلبي

نفي القيم كلها

محاورة التشاؤم

من المعروف أن الحضارة الواحدة إذ تطعن في السن تتعرض قيمها الأساسية لخطر فقدان أثرها في نفوس الأفراد، ويأخذ التشكك واللامبالاة بتعويض التباين الروحي الذي يحتوي تلك الحضارة ونحن نرى مثل هذا التشكك بالقيم والنفي المطلق لا مكان الحياة الفاضلة يبدأن الظهور في شكل محاورة بين سيد وعبده تدعى محاورة التشاؤم.

فالسيد يعلن لعبده أنه ينفي شيء معين فيشجعه العبد على ذلك معدداً جميع نواحي المتعة في ذلك الشيء غير أن السيد حينئذ يكون قد سئم الفكرة ويقول أنه لن يجعل ذلك الشيء وهذا القرار أيضاً يمتدحه العبد معدداً جميع نواحي السوء في ذلك الشيء لو فعله، وعلى هذا النحو توزن أنواع النشاطات التي يتعرف عليها عادة اشراف ما بين النهرين وبثت نقصانها فما من شيء إلا ويعوزه الخير وما من شيء ،، باهتمام الإنسان سواء في ذلك طلب الرفقى من أهل البلاط ولذائذ الأكل والقيام بالغزوات على قبائل البادية ولنستشهد ببعض المقاطع أولاً عن الحب:

اتفق معي أيها الخادم، أحل سبيلي أحل،

ماعشق امرأة، اعشق سبيلي اعشق

من يعشق امرأة ينسى العوز والبؤس

لا أيها العبد من اعشق امرأة

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابقة

لا تعشق يا سيدي لا تعشق

ما المرأة إلا فخ ومصيدة

إنها سيف مسنون من حديد

يقطع الشاب به عنقه

وعن التقوى:

اتفق معي أيها العبد، أجل سيدي أجل

مر لي في الحال بما دليدي

وأحضره هنا سأقدم فريضة لإلهي

حسنا تفعل سيدي من يقدم فريضة لإله

يوجد لقلبه الراحة والطمأنينة

لا أيها العبد لن أقدم فريضة لإلهي

حسنا سيدي حسنا تفعل

ليعلم إلهك الركض وراءك كالكلب

الإحسان:

اتفق معي أيها العبد أجل سيدي أجل

سأتصدق على أرضي

تصدق سيدي تصدق

من يتصدق على أرضه

يضع صدقته في كف الإله مردوك نفسه

أي أن مردوك نفسه كأنما تسلم الإحسان فيجاوز به مثله

لا أيها العبد لن أتصدق على أرضي

لا تصدق يا سيدي لا تتصدق

وينتهي الجدل إلى هذه الخلاصة ليس في الحياة ما هو حقاً خير الكل باطل

Scanned by CamScanner

المحاضرة السابعة

اتفق معي يا أيها العبد، اجل سيدي أجل

ما الخير إذن

إن أدق عنقي وأدق عنقك

وتسقط كلانا في النار ذلك هو الخير

وإذا كان كل ما في الحياة باطلاً لم يبق إلا الموت جميلاً فيجيب العبد على ذلك بقول قديم يعبر عن صبره واستسلامه الفلسفي

هل ثمة من طال قامة فبلغ السماء بيديه

وهل ثمة من اتسع فبكا ما ضوى الأرض بذراعيه

فإذا كان من العبث البحث عن خير مطلق فلنستسلم عن البحث فالمستحيل فوق طاقتنا غير أن السيد يغير رأيه مرة أخرى.

لا أيها العبد سأقتلك انت وحدك لتسبقني

أو يتحمل سيدي العيش ولو أياماً ثلاثة بعدي

ذلك سؤال العبد إذا لم يكن في الحياة من نفع ولا خير من شيء والكل باطل وعبث أي نفع للسيد من إطالة حياته بعد عبده.

هذا النفي للقيم كلها ونفي وجود الحياة الفاضلة، فهي محاضرتنا.

انتهت المحاضرة

Scanned by CamScanner